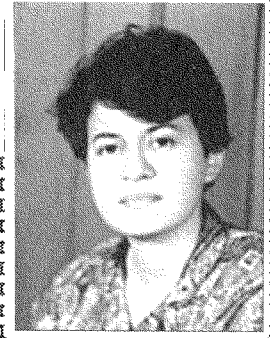


أمنيات مطلوبة على عتبة الانتظار



نادية هازي العزوي
الاستاذة جامعية

وكيف يعيش العاقل في
الزمن المجنون؟
الفاطحي الفاضل

- ١ -

أَتَعْلَم، أم أنت لا تَعْلَم، أن الصروب
والحصارات اللعينة حين تختصر
الوجود العظيم للإنسان - كل وجوده
- في حاجتين بائستين: إشباع الجوع
وطمأننة الخوف، وتمحو المتع المؤثثة
لذلك الوجود لأنها تغدو ضرباً من
الترف الكمالي الزائد، فإنما تفرض
عليك مقايضة جائرة: تبيعك عري
الضرورة والاستثنائية في أشد
حالاتها تقشفاً وشحاً، وتسلبك بذخ
الحرية والمسرات الصغيرة والأحلام
المشتهاة التي لا تملك إلا أن تؤجلها...
حتى صيرت تخشى في النهاية على
هذا الركام المؤجل أن يغطي خارطة
حياتك ولم يبق لك من العمر إلا فسحة
ضئيلة.

متع صغيرة جداً تُعدّ عند مَنْ هم في
الضفة المطلقة غير المحاصرة من
أنفه الحقوق وإكبتها عليك - ولنطق
لا تفهمه - ترف لا موجب له... متع
من قبيل: كتاب منشور حديثاً يصلك
في البريد؛ وكانت دور النشر، قبل
تغير المقاييس، تحسب للقارئ
العراقي حسابه، وتقطف له الحصة
الأكبر في التسويق. يا هؤلاء! مازلنا
نقرأ، لأن مرض القراءة فينا مرض
مُزمن لم تستطع الأزمان كّلها أن
تداوينا منه... أو من قبيل مشاركة
في مؤتمر دولي يُعقد في مكان ما
على هذه الأرض في تخصصك
المعرفي الدقيق... أو سيارة صغيرة
تشتريها بعد سنين من الخدمة
والعمل المثابرة... أو علبه سكاثر من
النوع الفاخر الذي كنت تدخنه من
قبل... أو زيارة مع صديقك إلى
واحد من المطاعم الفارهة التي
اعتدت أن ترتادها سابقاً... أو ثوب
جديد تشتريه دون أن يوجعك ثمنه
(وكان لنا ذوق راقٍ في متابعة
الموضات، تشي بذلك ثيابنا القديمة
التي ما زالت تحتفظ ببقايا جمال

قديم كعجوز حسناء)... أو ضجعة
هائنة على سريرك دون أن تسل
الكوابيس والهواجس سيوفها
عليك... أو ضحكة صافية من قلبك
لا تشويها مرارات دقيقة... أو...
أو....

قال أحد شعرائنا الشباب (من مواليد
الستينيات) في ملتقى شعري: «لم
يُسعِفني الطُرف في مرافقتي وسنوات
شبابي الأولى في أن اتغرّل، لأن قصيدي
كانت مشغولة بالبنديّة والأفكار الوطنيّة
والحماسيّة. كنت أشتهي أن أقول عن
حبيبي أشياء كثيرة، عن وجهها وقسمات
جسدها وخصائرها. وما قد شارفت على
الأربعين وما زالت الأمنية مقموعة؛ فانا اليوم
محاصر بأرجاع صميمية عطفت مسارات
الرؤى والقصائد إلى اتجاهات بعيدة، ولا
أملك ثانياً إلا أن أوجل ذلك ريمًا إلى ما بعد
الخمسين».

- ٢ -

أَتَعْلَم مديات الصراع الفاجع الذي
يعيشه المثقف في انشطاره وتمزقه
بين مطامح معرفيّة وثقافيّة يسعى إلى
تحقيقها، وبين أعباء لقمة الخبز
تنهش بداخله وتطوح بوعيه وكل
قناعاته؟ يقول أحمد خلف: «ربما لا
تتبادر إلى ذهنك الآن الكيفية التي سابع
فيها الكتب، أي أن اتحوّل وأغير من
طبيعتي، من مبدع إلى بائع؛ إنه تبادل كينونة
بالتمام».

انزلق البعض، وهرب البعض،
ومازال البعض الآخر على شفا
الهاوية متماسكاً يراقب، وقد
تحشرج وتعسر صوت الإصرار في
فمه، وهو يردد مع «قديس» خليل
الخوري:

وعندما يضيع كل شيء

يظل لك

أنتك لا بعث ولا اشتريت...

أنتك ابصرت وما اشتيت

... متمسكاً بخيوط باقية من رغبة في
المواصلة والكتابة التي تعينه على

تحسس كيانه [ما أيسر أن نردّد بنبرة شعاريّة جاهزة: «أنا أكتب إذن أنا موجود»؛ ولكنّ المازق المأساويّ الجارف يكمن في أن أكون موجوداً بشكلٍ ما وأعي غياب جدوى الكتابة وانطفاءً بريقها في داخلي]. تقول لطفية الدليمي: «كتابتي تتم الآن في عراء الوجع، العراء الذي يعقب بروائع الموت... نكتب ونحن نلتطّي في الحصار والكآبات، وتنصدى لكثير من الغوايات التي تغازل عوذ الكثيرين منّا في محاولة استبدال الروح بمسكوكاتٍ أو أوراقٍ نقديةٍ أو مقايضتها بجوازات سفر أو وثائق تجعل من العراقيّ المهاجر إلى النعيم الموهوم شخصاً من الدرجة الثالثة في مخيمات اللجوء والتسول».

- ٣ -

أَتَعَلَّمُ أَنْ لافِتات النعي السّود تكاد تسدّ علينا عيون الشمس في كلّ صباح، وهي توشح جدران جامعاتنا ومؤسّساتنا معلنةً عن مواكبٍ لا حصر لها من مُبدعيننا رحلوا قبل الأوان واندثرت معهم مشاريع وأفكارٌ واعدة... لافِتات حفظنا كلماتها الصمّ: «انتقل إلى رحمة الله بنوّة قلبية مفاجئة...»؟ [قال لي أحدُ الزملاء يوماً بسخرية سوداء: كأنّ النويات القلبية تتنافس على اختطاف أساتذة جامعاتنا؟] ولعلك لا تعلم أنّ بعضهم حين مات لم يكن لدى أسرته ما يكفي لدفنه، لأنّ موته - كما قيل - جاء مفاجئاً، وكانّ الموت صار عندنا بحاجة إلى مراسيم تمهيدية تعلن عن مقدّمه كي تتاح للآخرين فرصة التهيؤ له.

- ٤ -

أتعلم أنّ فراق الأحبة المهاجرين سيظلّ الأوجع عندنا؟ فتجربة الهجرة جديدة علينا، لم نستطع بعد أن نألّفها أو نستسيغها، ولن نفعل مهما حصل، بسبب كمّ الحنين

والعواطف الساكنة في أعماقنا والتي تشدنا في ليالي الغربية إلى أدقّ التفصيلات والقسمات المحليّة: الشوارع، المقاهي، رائحة الخبز والتثؤن، استكان الشاي، دورة أسطوانة تدور معها أغنية عزيزة علينا لناظم أو سليمة أو زهور حسين... نُصّب الحريّة، تمثال لجهرمانة، نواعير عانة، شناشيل البصرة... ولن تنجح كلُّ غوايات الهدايا الثمينة والنقود الباردة المُرسلة من أحبّتنا - حتى في أعسر الظروف - في أن تُسكّبت لذع الذكريات ونبرات العتاب الساخنة. يخاطبُ وارد بدر السالم صديق طفولته المهاجر: «اشرب من طاسة أيامك، أيها الهارب الجميل، فقد نلتقي بعد سنوات الحريق وتلتقي كفتانا. وأريدك أن تتذكر فقط صفحة المراثي وصفحة الأمل، أيها الصديق المعفر بالثلج وعَبَق الحانات. لقد وصلتني قمصانُ الحرير. فهل وصلتك أبوذيتي؟».

- ٥ -

أَتَعَلَّمُ مدى حبنا للحياة؟ وأننا قد نفلح المحال لنظفر بلحظة حبّ تشدنا إلى تُسغ أبدئيّ العطاء، تماماً كما أيّتج حبّ المعري لها على قضبان عزلته، وأعياء الفكك من سحرها:

لو أنّك العرس أوقعتُ الطلاق بها
لككّك الأمّ ما لي عنك مُصترَف!

فقد علمنا جذرنا التمزويّ الأوّل
دروس الانبعاث والتجدد، وعلمنا
فرعنا «السّيّابي» المورق أن نولّد من
لحظة الموت لحظة حياة:

جيكور ستولد من جُرّحي

من غصّة موتي، من ناري

سيفيض البيدر بالقمح

والجرن سيضحك للصبح!

وقد لا تعلم أنّ طالبنا الجامعيّ
الشاحب الوجه من جوع وقلق

(بعضهم يُمضي اليوم كلّهُ بلفّة فلافل) ما زال يقول الشعر ويحفظ روائع المتنبي ودرويش والجواهري وأمل دنقل وخليل حاوي و...، ويحتفي بذكراهم بطريقة خاصة. ففي ذكرى السيّاب لهذا العام مثلاً، أعدت الجامعة مهرجاناً شعرياً للطلّاب، قرأ فيه بعض الطلبة نصوصاً واعدة، فقرأ محمد راضي شارف (ماجستير):

في هذا الوقت المتصانر

من عمر النرجس:

لا حبل كي أتسلق أو كفت

لا باب يُفتّح أو يُغلق

أو حتى صوت يسألني

فاجيب بصوت مشلول

أدخل من ثقب الباب

إلى قلبي

أنتظر الفرغ الآتي

كي لا يأتي.

وقرأ عارف الساعدي (المرحلة الثالثة):

يحلّقون

بينكرون الشمس في منطقة أخرى

ويزدعون القمر الفضّي حولها

ويحرثون الأفق الممتدّ بامتداهم

ويبدون نجمة واحدة.

وقد ألحوا على الكلية في أن تحتوي مواهبهم المتوثّبة في جريدة أو مجلة، فكان مولدُ نشرّة جدارية دورية - متواضعة في طباعتها، نعم، ولكنها عظيمة في تطلّعاتها ودلالاتها، يضمّها عنوان يعانق المستقبل عناقاً حداثياً: أدب ١٩٩!

- ٦ -

أخي... أتمنى أن لا يكون كلّ ما أكتبه إليك «حبراً على ورق» - وهذا هو عنوان المعرض الأخير للمبدع علاء بشير. فما أحوجني إلى صوتك يكون معي لنتخطّي المحنة معاً! □